

السلطات السعودية وعسكرة مواسم الحج



قال مرصد انتهاكات الحج والعمرة إن المبالغة المفرطة للسلطات السعودية في عسكرة مواسم الحج والعمرة قد أسفرت عن تدهور ملحوظ في مستوى الخدمات الأساسية المقدمة للحجاج، الأمر الذي تسبب في وقوع ضحايا بين صفوفهم.

وأبرز المرصد أنه في ظل الإهمال المتعمد والتقصير الواضح الذي تنتهجه السلطات السعودية، أصبحت أداء مناسك الحج مغامرة محفوفة بالمخاطر تهدد حياة الحجاج.

وبحسب المرصد عمدت الحكومة السعودية إلى تسييس الحج والعمرة، من خلال الاعتقالات التعسفية بحق عدد من الحجاج والمعتمرين، ومنع كثير من المسلمين من أداء هذه الشعائر بغير مبرر شرعي أو قانوني واضح، واستخدام الحج والعمرة كوسيلة للابتزاز السياسي.

وتُعد حماية فاصدي البيت الحرام من أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق السلطات القائمة على تنظيم شؤون الحرمين، إلا أن تصاعد الانتهاكات بحق الحجاج والمعتمرين من خلال المنع والاعتقال التعسفي

وتقييد الحريات يُعتبر خرفاً لحقوقهم الأساسية وتعدياً على حرية ممارسة شعائر الحج والعمرة.

لكن السلطات السعودية حوّلت هذا المكان المقدس إلى مسرح للاعتقالات التعسفية، وحالت دون تمكين العديد من المسلمين من أداء مناسكهم، وجعلت من عبادة الحج والعمرة وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية.

كما أدى إهمالها وتقصيرها المتعمد في تنظيم وإدارة الحج إلى وقوع مئات الضحايا من الحجاج، تاركين خلفهم قصصاً مؤلمة عن الأرواح التي فقدت في رحاب هذه الأماكن المقدسة.

ولدى السلطات السعودية تاريخاً حافلاً في إدارة الحج والإخفاق والفشل والتي عادت إلى الواجهة هذا العام بعد تسجيل وفاة مئات الحجاج وسط تقصير حكومي فاضح.

ولطالما حدثت كوارث وأزمات كبرى في إدارة الحج، وهذا الحدث ليس أولها ولن يكون آخرها في ظل استمرار هذا النمط البائس من الحكم، أي حكم الفرد الواحد وسوء الإدارة.

إذ أن أزمات الحج تتكرر بشكل مختلف كل عام وكأن الحكومة السعودية تكتشف أن موسم الحج قادم بالصدفة فيما هي في الواقع تظهر تقصيراً جسيماً.

وطوال العقود الماضية حدثت كوارث جعلت العديد من الدول تطالب بأن تكون هناك حلول لمواجهة تحدي إدارة الحج.

والحقيقة أن إدارة مليون ونصف المليون إلى مليونين شخص ليس بالأمر الهين، لكن كعادة الحكومة السعودية متعجرفة ومتكبرة عن التعلم وسماع التجارب وإشراك مؤسسات الدول المسلمة في نقل خبرتها وتجاربها وكوارثها في مثل هذا الحدث الأممي.

وفي 12 ديسمبر عام 1934 عندما قرر عبدالعزيز دخول مكة والاستيلاء عليها، كان يواجه معضلة أساسية هي كيف يمكن له إقناع أهل الحجاز والعالم الإسلامي قيادات وشعوب بهذه الخطة؟.

نشر عبدالعزيز خطابه الأول في صحيفة أم القرى في عددها الأول دوافع دخوله للحجاز وقال بالحرف الواحد " أكبر همنا تطهير هذه الديار المقدسة من أعداء أنفسهم الذي مقتهم العالم الإسلامي في مشارق

الأرض ومغاربها“ ثم قال “ سنجعل الامر في هذه البلاد المقدسة- بعد هذا- شورى بين المسلمين“ العدد الأول.

هذا الخطاب بعثه إلى العديد من زعماء العالم الإسلامي دولاً وجماعات.

كان عبدالعزيز يعلم أن مكة ليست ملكاً لأحد، حتى الشريف حسين كان يعلم هذا، وكان يتكسب من الحج عبر جماله وبغاله في نقلهم من وإلى مكة، لكن لم تكن مكة مستباحة لشخص واحد يفعل بها ما يحلوا له.

كانت مكة تاريخاً تخضع لعدد من المرجعيات التنظيمية من مصر وإسطنبول العثمانية، وحتى في مرحلة لاحقة الإنجليز والفرنسيين في ترتيب أمور رعاياهم وخوفهم من أن تكون مكة مركزاً للعمليات التخطيطية ضد الاستعمار.

وأيضاً كانت تحرص هذه المرجعيات على عدم تفشي الأوبئة التي كانت تفتك بالحجاج مثل الملاريا التي استمرت عقوداً كاملاً تحصد الحج وتفتك بهم.

هذه المرجعيات مثل العثمانيين مع الانجليز والفرنسيين قررت في مرحلة تاريخية بإقامة مناطق حجر، في البحر الأحمر وفي جدة، لعزل الحج والكشف عليهم والتأكد من سلامتهم.

لهذا لم تكن مكة قبل الحكومة السعودية أرض بلا تنظيمات أو قوانين تنظم الحج، بل إن مكة كان بها مجلس إداري اسبوعي يُعقد لمتابعة أحوال مكة، والمراجع حول تاريخ مكة سهل الوصول لها وهي غير قليلة.

لكن أهمها ما صدر خلال السنوات الماضية لمايكل كريستوفر “إمبراطورية مكة“، هذا الكتاب يحكي قصة الماضي المكي بخيره وشره.

أما عن العهد السعودي، فكما يقول الواقع المأساة ليس لها وصف ولا أبالغ إن قُلت أن من يتابع شؤون الحج يعلم أن موسم الحج كل سنة هو تحدي كبير، حيث أن مؤشر الوفيات يعطي انعكاساً عن هذه المأساة.

فقد حاول ولا زال يحاول العديد من النبلاء في اتخاذ طريق العلم والمعرفة لتطوير مكة وإدارة شؤون الحج بشكل سليم.

وحاول الدكتور سامي عنقاوي قبل 5 عقود أن يؤسس مركز أبحاث الحج لكي يتسنى له وللفرق العلمية جعل الحج أماناً كما هو حلم كل مسلم. وهو ذات الشعار الذي تتبجح به السلطة.

ففي كتاب مكة المدينة المقدسة للدكتور البريطاني الجنسية الباكستاني الأصل ضياء الدين سردار، سرد قصة هذا الحلم المؤؤد.

هناك من يقول إن الحكومة السعودية تحاول كل عام أن تُنجز موسم الحج كل سنة، وأنها تفعل الكثير. وهذا الكلام صحيح، فهي تفعل كل شيء لتحقيق أكبر قدر ممكن من المال، والضغط الكبير والمنهك على مؤسسات الدولة والموظفين الشجعان بكافة قطاعاتهم الصحية والأمنية والإدارية، فهؤلاء هم فعلاً أكبر ضحايا موسم الحج.

إذ أن الجهد المبذول يفوق الوصف، لكن إدارة الحج ليست فقط جهد المؤسسات والأفراد، بل نوعية القرارات التي تتخذ.

فعلى سبيل المثال هذا العام، صدرت تعليمات مكثفة حول التهدة والتهديد الأمني بدأ منذ مده في بث الخوف والرعب في نفوس الوافدين للحج، فضلا عن مطاردة من لا يحمل التصاريح اللازمة للحج.

هناك جهد على أرض الواقع، لكن لا يوازي الجهد المبذول لحماية محمد بن سلمان وإنهاء العسكر في حملات عسكرية استعراضية.

الحكومة السعودية لديها القدرة على القيام بأي شيء إذا ارادت، فهي أقامت قصور الأسرة الحاكمة في نيوم في أقل من 4 أشهر، فضلا عن قصور ومنشأة ملكية لا يمسهما السوء من قريب أو بعيد، لكن الحج والبنية التحتية والإنسانية غير مهمة.

المهم لدى ابن سلمان أن يكون المهيمن وصاحبة الكلمة، حتى لو كان الثمن أرواح الضحايا التي تذهب لأسباب تافهة، وهذا مؤشر على يؤس صنيع الحكومة السعودية.

موسم الحج هو اختبار سنوي حول تقييم قيمة الانسان في بلد مثل السعودية، فهي تنجح في الاستعراض الإعلامي حول ما تزعم أنها سوف تقوم به، لكن على أرض الواقع العكس تماماً، لا يضر الحكومة السعودية فتح الباب للخبراء والكفاءات للإسهام في ترتيب الحج.

لكن هذا حلم إبليس بالجنة، فالدكتور لديه عقدة ونرجسية، بأنه يفهم كل شيء وأنه قادر على إدارة الأمر بحكمته التي لا يوازيها شيء من النباهة والذكاء.